فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغن ناعوس البحر[1]. فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي)[2].

كلمات حق كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض، وكشفت له أي نبي صادق ماثل أمامه، وقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطئ قدم بمكة، ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

وحيدٌ في حرة يثرب

لم يكن ضماد هو الوافد الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ، فهناك الكثير.. الكثير. منهم من منعه الخوف من التَّفَوُّهِ فاكتفى بنظرات كلها حسرة، وعاد بصمت إلى موطنه. ومنهم من كشف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ، ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه، لكن هناك من استمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ، وهمَّ أن يبوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسه الحارة جمراً.. حمماً بين أضلاعه عندما عاجلته يد التسلط تحشو فمه بالتراب، وتلجمه بالصمت، فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.

لكن يد الطغيان اكتوت بنار التجاهل واستحمت بمعركة من معارك الجاهلية التي لا طائل من ورائها سوى الحسر.. معركة اسمها:

معركة بعاث

كان بالإمكان تفاديها بين أهل (يثرب) لو استمع كبيرهم أبو الحيسر ومن معه إلى نداء التوحيد، لكنهم من أجل الثأر أتوا، وبالكراهية عادوا، إلا واحداً ظل غريبا على أرض يثرب، وذلك لما (قدم أبو الحيسر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج،

---

(١) عمق البحر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٥٣٩.

obeikandl.com

سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال ﷺ لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟

قال ﷺ: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاب.

ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً-: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم به.

فأخذ أبو الحيسر «أنس بن رافع» حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة (بعاث) بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند موته، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ)[1]. لكنه لم يجرؤ على الجهر بإيمانه وسط قوم قد احتقنوا بالثأر، وتخلوا عن عقولهم من أجل خشبة يسمونها إلها، فتحولت الأشياء في أيديهم إلى عصي وسياط، وما لهم لا يفعلون وهم يرون أبا لهب يتعقب ابن أخيه يسفي عليه التراب.. يؤذيه ويكذبه، ويأمر الناس أن يؤذوه ويكذبوه. كأنه عار يريد التخلص منه، فكيف بشاب مستضعف كإياس.. غيرته كلمات الحق، فطواها في نفسه، ولما حل بحرة يثرب تماهت غربته بغوره.. تلتحم به ويلتحم بها، ولما حرره الموت.. أفضى بتلك الكلمات لمن حوله، فقد همَّ بالرحيل، وهَمَّ الخوف أيضاً بالرحيل. وما كان يقوى على إظهارها، وما كانوا ليطيعوه.

يا لغربة الموحدين.. يا لمعاناتهم لكن الله معهم.. يدافع عنهم دائماً كما دافع عن:

---

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٣/٢)، حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو، عن محمود بن لبيد. ابن إسحاق سماع من شيخه الحصين وهو حسن الحديث قاله أبو داود، فقول الحافظ في التقريب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح التهذيب ٢-٣٨١، بل قال الذهبي ثقة. الكاشف ١-٢٣٧. ومحمود صحابي صغير.

سعد والفقراء

فقد رفض سبحانه ذلك التعسف الطاغوتي، وتلك الأوامر العفنة التي انطلقت من أفواههم.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك، فلا يجترئون علينا - وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، وحدث به نفسه[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[2]. لقد تعسف هؤلاء وتطرفوا في مطالبهم، وهم يرون كل شيء حولهم يدينهم ويلوي أعناقهم، هاهم في تخبطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبة، فإن أصبحت ذهبة اتبعناك وعرفنا أن ما قلت كما قلت.

فسأل ربه عز وجل، فأتاه جبريل فقال: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة.

قال: يا رب لا، بل افتح لهم أبواب التوبة)[3].

يا لرحمته ﷺ بهؤلاء الذين آذوه وكذبوه ونالوا منه.. إنه يطلب لهم الرحمة

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وفضائل الصحابة والبيهقي واللفظ له (٣٥٣/١).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد ١-٣٤٥ وحدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، وعبد الرحمن هو ابن مهدي حافظ ثقة ثبت التهذيب ٦-٢٧٩ وسلمة تابعي ثقة التقريب ٢٤٨ وشيخه ثقة اسمه الصحيح: عمران بن الحارث السلمي وهو من رجال مسلم التهذيب ٨-١٢٤.

والتوبة.. إنه كما قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)[1] هذا هو محمد ﷺ، أما أولئك، فقد أنزل الله على نبيه سورة الأنعام، وفيها يصفهم.. يفصح عن نهجهم الذي ارتضوه لأنفسهم.. إنه العناد، والعناد فقط، فلا الآيات ولا المعجزات ولا غيرها تقنعهم. يقول سبحانه: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[2].

أما قومك يا محمد: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3].

ثم يخبره سبحانه مرة أخرى عن حقيقة هؤلاء مسلياً نبيه.. طارداً ذلك الوجوم الذي يخيم عليه من تكذيب قومه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

ولو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى، لسلب منهم الحرية والإرادة، كما سلبها من البهائم وسائر المخلوقات. لكنه فضلهم وكرمهم بهذه الإرادة، فهم يختارون طريقهم، وسيحاسبون عليها، لأنهم حملوا الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، وهي الإرادة.. هذه الحيوانات ستصير يوم القيامة تراباً، لأنها مسلوبة الإرادة.. إنها

---

(١) حديث صحيح. انظر (٢/٢٨٤) من صحيح الجامع الصغير.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٤-٦.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧-١١.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ٣٣-٣٥.

جزء من هذا الكون المسخر للإنسان.. المشكل لابن آدم يتصرف فيه كيف يشاء. ثم يحاسب في نهاية المطاف على تصرفه ذلك. وهنا تنتصب الحقيقة ماثلة أمام الجميع: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1].

مجاعة في مكة

حالة واحدة تخضع فيها قريش للحق.. هي البطش، ونزع الحرية والاختيار منهم.. عندما يذوقون العذاب، وتتوه منهم إرادتهم. عندها ينحنون للحق معلنين التوبة والإنابة.

يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

لقد حدث ذلك من قريش كما أخبر سبحانه.. تنازلوا عن كل شيء، ودسوا جباههم في التراب، وانحنوا جوعاً وخوفاً وهزالاً.

حدث ذلك عندما (دعا رسول الله ﷺ قريشاً إلى الإسلام فابطأوا عليه، فقال ﷺ: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف[3]. فأخذتهم سنة فحصت كل شيء، حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع.

قال الله عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

فدعوا: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[5].

(فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى، فلما أصابتهم الرفاهية عادو إلى حالهم). ثم عادوا في كفرهم)[6].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٦.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٠.
(٣) أي السبع العجاف التي مرت بقوم يوسف.
(٤) سورة الدخان: ١٠-١١.
(٥) سورة الدخان: ١٢-١٥.
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ١٨٠٩/٤ و ١٨٢٣.

ما أسرع نسيان قريش.. ويحهم أما تعلقوا بأستار الكعبة يوم ولد رسول الله ﷺ هرباً من الفيل الحبشـــي وأصحابه، وهاهو القرآن ينشـــط ذاكرتهم، وتنزل كلمات الله سبحانه.. تنزل سورة الفيل تهز قريش، وترفع رأسها نحو السماء علها تفيق، وتدرك ما يحدث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

وتنزل سورة أخرى على محمد ﷺ.. تهز ذاكرتهم وسباتهم مرة أخرى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾[2].

لكنهم لا يفيقون. إنهم خشـــب مسندة.. حجارة تتدحرج فتحطم ما تحتها. إن كل محاولة للتذكير تعقبها سطوة من قريش وتنكيل، والنتيجة جراح ودموع وأنين تضج بها دور المستضعفين. ما الذي يرضي هؤلاء، وما الذي يريدون؟!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

قريش أهل فصاحة ومعرفة بلغة القرآن أكثر من غيرهم ممن جاءوا بعدهم.. لقد سحرهم هذا القرآن ببلاغته وبيانه، واعترفوا بعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ورفضوا أن يكون هذا الكلام صادراً من بشر. وماذا بعد؟

لا شـــيء.. إصرار على الموقف، وحسد لمن اختاره الله نبياً، ومحاولة لتعجيزه ﷺ بكثرة الطلبات.

لكن الله ســـبحانه ينزل آياته قاطعاً دابر العبث القرشـــي، فالإيمان لا يحتاج إلى تلك المطالب الساذجة.. إنه فقط يحتاج قلباً مفتوحاً وفكراً سليماً.

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

الرسول ﷺ والتعجيز

يقول سبحانه عن مطالب هؤلاء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[1].

ثم يذكر سبحانه مطالبهم لنبيه ﷺ لكي يؤمنوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾.

لكن الله يبين حقيقة رسوله ﷺ لهؤلاء الهمج.. إنه مجرد رسول.. بشر، وليس عليه سوى البلاغ: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2].

فتى قريش لا ييأس

مع كل هذا التعنت، ومحاولات الهروب من حصار الحقيقة يستمر ﷺ في دعوته بلا يأس.. بلا كلل. كلما ضاقت به مكة تلمس الأتباع حولها.. لقد (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟ حتى أن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر... فيأتيه قومه فيقولون: أحذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع)[3] والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب، وهناك الساخر، وهناك المشفق، وهناك من قيده الخوف فهو يشير بقلبه، وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء.. دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ، فقد عاد إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه وينام، ومع كل صباح ينهض.. يشرق شمسا من جديد.. ينهض للتبشير بدعوته، لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله، ومن يستطيع انتشاله، وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له..

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(٣) حديث صحيح مر معنا.

يحملون الأذى بأيديهم وألسنتهم.. يُسْمِعونه ما يكره، ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبوه، فأصبحوا يقولون: (مذمماً) لا (محمداً) لكن ذلك لا يضره، فالله يصرف عنه الأذى واللعن.

يقول ﷺ: (انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذمماً» ويلعنون «مذمماً»، وأنا محمد)[1].

ما حصيلة قريش من الفكر؟ ماذا لديها من عقيدة حتى تعاند كل هذا العناد؟ ليس لديها سوى أكوام من الحجارة نصبتها فوق الكعبة، ثم بايعتها على الألوهية! فهل ستفيق قريش من غيبوبتها إذا رأتها نثاراً حول الكعبة؟ هل ستسأل نفسها: كيف تتحطم الآلهة أم أنها ستقول:

من حطم الأصنام؟

قريش تسأل غاضبة، ولدى فتى الإسلام علي بن أبي طالب الجواب، فيقول: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس نبي الله ﷺ، وقال: اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه، فنهض بي، فإنه يخيل إلي لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صفر، أو نحاس، فجعلت أزاوله[2] عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال رسول الله ﷺ: اقذف به.

فقذفت به، فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، تواترنا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس)[3].

---

(١) حدث صحيح. رواه البخاري كتاب المناقب.

(٢) أي باشره بيده ومارسه.

(٣) سنده جيد رواه أحمد ١-٨٤. حدثنا أسباط بن محمد حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي، أسباط بن محمد بن عبد الرحمن القرشي بالولاء، وهو ثقة، لكنه ضعيف في سفيان الثوري وروايته هذه ليست عن الثوري، أما شيخه نعيم فحسن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٥٦٤ وأبو مريم قال النسائي: أبو الحنفي ثقة، وإن كان الثقفي فقد قال الذهبي في الكاشف: ثقة، والحديث رواه البزار وأبو يعلى. ثم وجدت أن أبا مريم ليس بالحنفي ولا بالثقفي بل الأسدي كما جاء عند الحاكم (٥/٢) فصح بذلك السند لأنه تابعي ثقة، وثقه العجلي والدارقطني وابن حبان (التهذيب ٢٢١/٥).

ولما استيقظت قريش وجدت آلهتها مسحوقة كالرمل.. كالرماد، فهل قالت قريش لنفسها: ما هذه الآلهة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها؟ كيف نعبد رملاً.. نعبد رماداً؟ لم نتلق رداً من قريش، لكنه الغضب لا شك.. لا بد أنهم أشاروا يتهمون محمداً ﷺ وأتباع محمدٍ. لقد التهبت قريش واحمر حديدها وتوهج، فالحدث لا يمكن السكوت عليه، والقرار القادم لا بد أن يكون حاسماً ونهائياً.

اجتمعت قريش في مؤتمر محموم.. قرر فيه الجميع واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عنهم وعن أصنامهم.. هو بإزالة هذا المد الإسلامي، لا بإيقافه. ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على قائده وقتله. فليقتل محمدٌ حتى يتلاشى دينه، ويشتت أصحابه.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة.. لقتل آخر رسل الله، ومنقذ البشرية الأعظم (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله.

فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك.

فقال رسول الله ﷺ: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد. فلما رأوه، قالوا: هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم حصباً، وقال: شاهت الوجوه)[1]. وغادر المسجد، فأفاقوا.. تحسسوا، فإذا التراب يحشر أعينهم وأنوفهم.. يغطي وجوههم عاراً لا يغسل إلا بالدماء، وقد ملأ خبره أرجاء مكة.. محاولة اغتيال فاشلة أثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب، وكان أشدهم رأسهم أبو طالب، فقرروا حماية رسول الله ﷺ من

---

(١) إسناده حسن رواه أحمد ١-٣٦٨ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. رجاله أثبات وعبد الله بن عثمان بن خثيم صدوق، التقريب٣١٣.

قريش والدفاع عنه، فهو لا يزال من أبناء عبد المطلب زعيم قريش، ولم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى والعذاب من قريش، فكيف تقرر قريش قتله! ذلك أمر مستحيل.

إن على قريش أن تزهق أرواح بني عبد المطلب فرداً فرداً قبل أن تصل إلى محمد ﷺ، لذلك فقد أعرضت عن هذه المؤامرة مؤقتاً، لكي تمارس قسوة لا تقل عن الاغتيال. فماذا فعلت قريش؟

حصار جماعي في الشعب

قرر طواغيت قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي على المؤمنين، ومن يقف معهم من أقاربهم، فلا مصاهرة ولا بيع ولا شراء معهم بعد اليوم، حتى يتم تسليم محمد عليه الصلاة والسلام إليهم لقتله، والتخلص منه. لذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته، إلى مكان يقال له (شعب أبي طالب) أو (المحصب) حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ.

وعن هذا الحصار المرير، الذي لا أدري كم من الأعوام استمر.

يقول ﷺ وهو يواعد أصحابه في ذلك المكان الحزين: (نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني ذلك (المحصب)، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ)[1].

في مثل هؤه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوذيت في عز وجل وما يؤذي أحد، وأخفت من الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثة من بين يوم وليلة ومالي ولعيالي (ولا لبلال) طعام يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)[2]. ويقول صاحبه عتبة بن غزوان أحد السابقين: (ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها)[3].

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٦.

(٢) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً. حماد إمام ثقة من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

وسعد بن مالك، هو سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (كنا قوماً يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعتزمنا لذلك، وصبرنا له، وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه)[1].

ويقول علي بن أبي طالب: (طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بردة له مرفوعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة، وما هو فيه اليوم)[2].

هذه حال الرجال، فيا ترى ما حال النساء.. خديجة وفاطمة وزينب وأم كلثوم وأسماء؟ كيف كانت حالة الأطفال كابن عمر؟

يا صناديد قريش.. لماذا.. أي جرم قارفوه؟ أإذا ما أشرعوا الأبواب يوماً والنوافذ.. للهواء.. ولغيمات السماء.. لحداء الكون بالتوحيد سيقوا بالسلاسل، وعليهم تتراكم.. قاسيات كالجرائم.. تصنع للحزن عام.

عام الحزن

من شقاء لشقاء.. بعد عام الشعب والأحزان كالمطر الأسود.

هاهو رسول الله ﷺ والمرارة والكرب يلاحقانه في أهل بيته، إنه يلقى نظرات الوداع الحائرة، وعيناه تفيض دمعاً على حبيبته وزوجته، ورفيقة دربه الطيبة.. خديجة تضعف شيئاً فشيئاً حتى تذبل وتموت، وعند فراشها زينب تبكي وتبكي أخواتها الصغيرات فاطمة، وأم كلثوم. يبكين أمهن بحرقة.. يبكين خير نساء العالمين.

ربما كان لقريش وصلفها وقسوتها وحصارها سهم في سهام الموت التي أزهقت روحها، وربما كان السن وحده، الله أعلم.

---

(١) أثر رواه ابن إسحاق ومن طريقه هناد في الزهد ٣٨٨/٢ حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد وفيه جهالة شيخ صالح لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٢) يشهد له ما قبله وقد رواه أبو يعلى ٣٨٧/١ وفي سنده جهالة التابعي.

لكنها غـادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها ﷺ.. مشـفقة عليه.. غادرت وهي تناضل دونه، وتشده وتحنو عليه، فعاشت في قلبه متزينة بالحب. كان ينتقي لها أجمل غرفة في قلبه من بين كل النساء.. لم تحتل امرأة ما احتلته خديجة

قال ﷺ وحياً.. قال حباً.. قال وفاءً: (ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواسـتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقنـي الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النسـاء)[1]. ويقول ﷺ: (خير نسـائها مريم، وخير نسائها خديجة)[2].

وتتحدث إحدى النسـاء القريبات إلى قلبه: (كان رسـول الله ﷺ إذا ذبح الشـاة فيقول: أرسـلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يوما فقلت خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبها)[3].

كيـف لا يحب خديجـة ويفي لذكراها وهي أول من أسـلم، وهي أول من صدق. خديجـة أول امرأة في الإسـلام. (آمنت بي إذ كفر بي النـاس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها)[4].

ترى كما بكاها من المسـلمين والكافرين؟ امـرأة تحمل هذا القدر من الإخلاص والوفـاء جديرة بالرثاء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب.. ناءت بثقل فتت أكتاف رجال، فرحمها الله ورضي عنها وأرضاها، وهنيئاً لها (بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[5].

لقد سافرت لتنال وعد الله، أما زوجها ﷺ فتضاعفت مسؤوليته بعد أن انهد جدار كان يحميه، ولباس كان يقيه، ويد تمسح دمعه وتغسل جرحه، وشريكة تدفعه للأمام.

كانت خديجة تزاحمه ﷺ وتزاحـم قلبه بالذكريات الجميلة، تقول إحدى أمهات المؤمنـين: (مـا غرت على امرأة ما غـرت على خديجة من كثرة ذكر رسـول الله ﷺ

---

(١) حديث ضعيف الإسـناد عند أحمد ٦-١١٧، لكنه صحيح بدون لفظ ما أبدلني الله خيراً منها، شـواهده عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٤) حسن مر معنا قبل قليل.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٢٨٠). والقصب نوع من اللؤلؤ.

إياهـــا)[1] (كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشـــاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها فـــي صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لـــم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت)[2].

ليت شـــعري ما حال ابنتها رقيـــة التي غيب الكفر أخبارهـــا خلف ذاك البحر.. غريبة في بلاد الحبشة.. معذبة شريدة، وكيف تلقت خبر وفاة أمها الحنون، فيالحزنها على أم تموت بعيداً عن عينيها.. لم تشـــارك في تمريضها والعناية بها، ولم تئن قرب ســـريرها، ولم تمرغ وجهها ودموعها بكفيها، ولم تشارك في غسلها وتقبيلها وتكفينها، ولم تلق عليها نظرة وداع. كم هي قاســـية قريش.. كم هي قاسية أيام مكة على محمد وعلى آل محمد وعلى صحب محمد صلى الله عليهم جميعاً.

لم يلن قلب قريش.. اســـتمروا بالأذى، وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول اللـــه ﷺ، وآله الطاهريـــن، وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجـــة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة، وتلتها للحزن موجة أغرقت شيخاً كبيراً.. حامياً درعاً حصيناً اسمه:

أبو طالب

بطـــل من أبطال قريش، وســـيد من ســـادتها.. هدَّته قريش كما هدته الســـنون والأحزان. كان خلف رســـول الله ﷺ يحميه.. يدافع عنه.. رضي بالعيش في الســـجن معه، وقاسمه معاناته، لكنها الأيام لا ترحم، والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها.

هوى أبو طالب مريضاً على فراشه، لكنه ما زال على كفره.. قد تشبع رأسه بعيب قريش، وخرافات قريش، والخوف من ألسنة قريش. كان يخشى النقيصة.. يخشى أن تعيره مكة بعد موته، بأنه قد ترك دين آبائه وأجداده.

اشـــتد به المرض، ولعل ســـجن الشعب من أســـبابه، ودنا الأجل (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٨).

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة)[1] (قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع. لأقررت بها عينك)[2].

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)[3] (فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب». وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[4].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[5].

بطل إلى النار

إنه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب، لكنه رفض الحق.

جاء العباس أخوه، وعم رسول الله ﷺ يوماً إلى رسول الله.. يسأل عن مصير أخيه البطل ويقول: (يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[6]. (نعم وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاح)[7] ويقول ﷺ متحدثاً عن مصير عمه المخيف: (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)[8].

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١-٥٥.
(٣) صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٩.
(٤) سورة التوبة: ١١٣.
(٥) متفق عليه وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.
(٦) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/١٩٤.١٩٥).
(٧) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم ١-١٩٤.١٩٥.
(٨) حديث صحيح. رواه مسلم ١-١٩٦.

هذه هي حدود رسول الله ﷺ، وهذا كل ما يستطيع فعله له. قال ﷺ لمن حوله والحسرة في صدره: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[1].

لكن أين تذهب أعماله؟ أين جزاء هذا البطل؟ كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسلام رغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين، وأحاط ابن أخيه ﷺ ودافع عنه، وواجه قريشاً وشراسة قريش من أجله، فلماذا ولماذا..؟

العواطف الجياشة تفجر أسئلة ذاهلة.. تفجر مذاهب.. تبعثر الصفوف.. تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة، لكنها ما سألت يوماً عن أبي طالب نفسه: هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته؟ هل خدم نفسه كما خدم الإسلام؟ هل ارتقى بروحه كما ارتقى من يدافع عنهم سنوات وسنوات؟ هل فعل ذلك وهو مع رسول الله ﷺ.. يشرح له.. يوضح الحق له، ويؤكد له أن وعد الله صادق، ودين الله ماض سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أو لم يدافع.. انضم أو غادر؟

كان أبو طالب يستمع إلى كلام الله، وكان كلام الله يسيل في أذنيه منذ أشرق الوحي.. في أندية مكة.. في بيت ابن أخيه.. في بيته هو.. في شعبه.. في فراش الموت.

لقد منحه الله فرصة.. لقد منحه الله حرية الاختيار، وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة، لكنه خاف تعيير قريش وسبها له بعد موته. ذلك هو مستوى طموحه. هو لم يكن واثقاً من وعد الله، وإلا لما وقفت كلمات قريش الباهتة المحتملة عائقاً له عن الدخول في دين الله، وما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك، لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة، وثقة مزعزعة بوعد الله.

إن من يدَّعون أن الإسلام جعل أبا طالب كبش فداء يحترق.. لم يدركوا أن الإسلام لله، والتوحيد لله، وما محمد إلا رسول لله، وما محمد ﷺ إلا رجل تلقى رسالة الله، فأداها كما طلب منه.

---

(١) رواه البخاري ٣-١٤٠٩.

مــن أجل محمد تحرك أبو طالب، وقاتل أبو طالــب.. فقط من أجل محمدٍ. أما الله، خالقه وخالق محمدٍ، فأين مكانه في قلب أبي طالب؟

لا شــيء.. لا مكان لله في قلب أبي طالب. إن أول شــرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وتفرده والإخلاص له، وأبو طالب رفض هذا الشرط.. رفض وحدانية الله.. رفض الإخلاص له.. رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل. هو شــهم، وشــجاع، وكريم، كعنترة.. كحاتم. والإسلام يشطره مثلهم، يؤيده في مواقف، ويشجبه في مواقف.

كــم تمنينا لو كان مســلماً، لكن مــاذا بأيدينا، ماذا يفعل حزننــا بالحقيقة؟ هل ســيغيرها. إن حبنا لعلي لا يجب أن يطغى علــى حبنا لله، فإن فعلنا ذلك فنحن نعبد علياً من دون الله.

أبو طالب مات بطلاً، لكن إلى النار. ونهايته مأساة حزينة، لكنه هو الذي اختارها. أما ابنه:

الفتى الحزين علي

علي بن أبي طالب.. أول من أســلم من الفتيان، فلا شــك أنه قد دعا يوماً أباه إلى الإسلام.. لا شك أنه يشعر بالأسى على أبيه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة. لقد مات أبوه دون أن يســره بكلمة التوحيد، فذهب يســحب خطاه نحو رسول الله ﷺ.. قد تشــبع بالحزن حتى أثقله، فيقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشــيخ الضال قد مات فمن يواريه؟)[1]. ســؤال غاضب من إصرار هذا الشيخ على الشرك.. سؤال يبكي هذا الشيخ الضال. إنني أشعر بمرارتها في حلقه وهو يقول: الضال. كمن يقولها بعد أن استنفذ كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار، فأبى إلا الانتحار.

الكلمات بعد ذلك تخرج مزيجاً من الغضب والحزن والأســى. لكن رسول الله ﷺ

---

(١) سنده صحيح. رواه الطيالسي ٢-٩٠. وغيره حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت عليا. أبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب ٥٥٧.

كان طبيباً للقلـــوب.. طبيباً للنفوس. قال لعلي الحزين: (اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني.

يقـــول علـــي بن أبي طالب: فأتيته، فأمرني، فاغتســـلت، ثم دعـــا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء)[1].

يا لعام الحزن هذا.. أبو طالب غاب، وخديجة مضت، فما الذي ســـيحل برســـول الله ﷺ؟ وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟

تقول إحدى بنات أبي بكر: (ما زالت قريش كاعة[2] حتى توفي أبو طالب)[3].

فلما توفي هجمت وســـلت، وازداد توحشـــها، فهرب ﷺ منها عله يجد من يؤويه وينصره، لكن إلى أين؟

إلى الطائف

يشـــق الأودية والجبال على قدميه الدامتـــين المتعبتين، بلا راحلة.. فقيرٌ لا يملك ثمنهـــا.. يحمله حزنـــه.. يصعد به جبال الطائف يفتش عن أمـــل.. يبحث عن معين.. يبحث عن يـــد حانية تحمل هذا الدين برفق.. تقدمـــه للتائهين.. للجائعين للمعدمين وحتى للمترفين.. يبحث عن بقية خير في قلوب خارج مكة وعن أقوام تتمرد على هذه الأصنام، والعادات والشرع الشركي الملوث.

يقول عبد الله بن جعفر: (لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشـــياً على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)[4]. و(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: (عبد ياليل بن عمرو

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وهو الحديث السابق.

(٢) متراجعة جبانة.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٤٩: حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبة المجدر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي اللـــه عنها: العباس حافظ ثقـــة. التقريب ٢٩٤ وعقبة بن خالد المجدر صـــدوق صاحب حديث، التقريب ٢٩٤والبقية أئمة.

(٤) حديث حسن بشواهده سيمر معنا.

بن عمير)، و(مسعود بن عمرو بن عمير)، و(حبيب ابن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف).

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسل.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يئس من خير ثقيف)[1].

قام والحزن في كبده.. قام وحاله تتفطر لها القلوب.. جوع وعطش، وسير بالليل والنهار، وأحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها.. تذكره بخديجة وأبي طالب، ودعوة مطاردة، وأتباع تتخطفهم أيدي الطغاة.

قام ﷺ فالتفت إلى هؤلاء القساة لعل بقية من الإنسانية لا تزال عالقة في قلوبهم.. يرجوهم كتمان أمره، حتى لا تشمت به قريش، وتحمله من الضيم ما لا يطيق. قال لهم: (إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني - كره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[2] ذلك عليه - فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة[3] من عنب، فجلس فيه - وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف - وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بن جمح. فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني: إلى

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) يجعلهم يجترئون عليه.

(٣) الحبلة هي الكرم أو القضيب من الكرم.

بعيد يتهجمني. أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس. فقالا: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ. ثم قال له: كل. فلما وضع رسول ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد،

فقال رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال عداس: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى[1]. فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي.

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ وقال عداس: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف)[2].

---

(١) مدينة في العراق.

(٢) حديث مرسل. رواه ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعي ثقة، لكنه لم يذكر من شيخه هنا. لكن الحديث روي مرسلاً أيضاً عن الزهري، وعن عروة بن الزبير -وهو الحديث الذي بعده.. ما عدا الدعاء في هذا الحديث، فشاهده عند الطبراني، وقد قال الهيثمي في المجمع (٣٥/٦) ورجاله ثقات وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، ثم وجدت الحديث عند الطبراني في الدعاء، وعند ابن عدي في الكامل وسنده هو: ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن.. وهذا السند ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشام من أقرانه وشيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ولا يقوي هذا الطريق ما عند ابن إسحاق فقد رواه دون سند -أي روى الدعاء دون سند-. وقد أوردت الحديث لا لصحته، ولكن لأن سياقه ينسجم مع الحديث الصحيح الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أشد الأيام التي مرت عليه هي أيام الطائف ويدل على ذلك نزول ملك الجبال لينتقم منهم.

ترى كيف ستحمل هذا المكروب المسكين أقدامه، وهي لا تزال تنزف حزناً ودماً؟ كيف سيعود ولا أبا طالب بعد اليوم؟ من سيضمد جرحه وخديجة تحت الثرى؟ من يا ترى يكف أفواه قريش عن الشماتة؟

كانت أياماً لكن همومها أحالتها سنوات.. سألت بنت أبي بكر رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن أشد يوم مر به؟ فأشار إلى أيام الطائف وقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)[1].

إنه الهم الذي حمله ومشى به، حتى حنت عليه السحاب، وأشفقت لمنظره الحجارة وأغصان الشجر، واستعدت الرواسي الشم للانتقام له:

الجبال تنتقم

يقول ﷺ مواصلاً حديثه: (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2] فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[3].

صلى عليك الله يا نهر الرحمة.. في اليمين جبل وفي الشمال جبل. لو كنت ممن ينتقم لنفسه لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم، ولسالت من جبال الطائف دماء يراها أهل مكة، لكنه ما خرج لنفسه، ولا أحضر شيئاً من عنده.

رفض ﷺ الانتقام لأنه جاء ليجعل الحياة إيماناً وسعادة، وفي قلبه يهتز أمل يتلألأ.. يقول: إن في الأصلاب ربيعاً قادماً يتنفس الإسلام.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق) ومسلم.
(٢) جبلا مكة.
(٣) بقية حديث البخاري.

عاد ﷺ مطروداً.. جريحاً.. منكسراً كما خرج، فانسل إلى بيته الصغير، حيث ابنته وريحانته فاطمة. لا بد أنها بكت وارتفع نشيجها عندما رأت ذلك الشحوب على وجهه الكريم.. عندما رأت الدماء تتلألأ في جروحه، فسارعت لمواساته ومواساة جراحه، وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنته أم كلثوم، فذكرته بحبيبته خديجة، وذكره بيته بها، ففيه عاشا سوياً، وها هي الآن ذكريات عذبة لا تكف عن الحضور، وهاهو الآن شوق إليها.

محمد حزين اليوم، فهل لهذه الأحزان من نهاية؟

لم تكن هناك نهاية، لكن أمراً عظيماً حدث، وتسلية مذهلة تمسح بعض أحزانه السابقة، وتخفف ما ألم به من وجع.. ضغطت له المسافات، حتى رأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم، وما خلف السموات.. جمع له الزمن حتى أصبح بين يديه ساعات يقلبها.. مراكب يبحر بها.

الإسراء والمعراج

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]. متى كان ذلك؟

سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد، لكنه بين أعطاف أيام مكة الحزينة قطعاً. أما في أي سنة كان ذلك؟ في أي شهر؟ في أي يوم؟

الله أعلم، فكل ذلك غير معروف بالتحديد[2] وكل ما نقطع به أنه حدث في ليلة من ليالي مكة، وما دام الأمر كذلك، فدعونا منه.. دعونا نتسلل بهدوء من الضجيج المحيط بتوقيته إلى أحداث الإسراء والمعراج.. من بدايتها إلى مواجهة قريش بما حدث، فكيف كانت البداية.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) ليس هناك حديث صحيح يبين أي يوم أو أي شهر أو أي عام من أيام مكة حدث الإسراء، لذا فتحديد ليلة معينة للإسراء رجم بالغيب يحتاج إلى سند علمي.